# حجة الاسلام

## الغزالي

( ٤٥٠ — ٥٠٥ هـ ) — ( ١٠٥٨ — ١١١١ م )

**﴿تمهيد﴾** : نتتبع سير الفلسفة في أية أمة من الامم طريقتان اماان نذكر النظريات المختلفة وما اعتراها من التغير والتطور ، مستشهداً بابطالها وما لهم فيها من الاثر واما ان نأتي على سير هؤلاء الابطال فنجعلهم المراحل التي انتهت اليها الفلسفة في كل طور من اطوار نموها . ونعتمد على الحالتين دراسة الفلسفة وتتبع مجراها . وقد آثرنا في هذا المقال ان نتبع ثاني الاسلوبين لان الفلسفة في اعتقادنا وليدة الحياة فليس أدل على تطورها اذاً من الحياة نفسها ، ولان هذه الطريقة هي المتبعة اليوم على الاكثر وان لم تنكر ان للطريقة الاولى انصارها ، فنحن لذلك وان حدثناك عن الغزالي ، فانما نحدثك بالحقيقة عن طور هام من اطوار الفلسفة في الشرق ، وفي عصر اوشك أن يلفظ فيه التفكير الحر انفاسه الاخيرة

هذا وان المشهور بين المطلعين على الآداب العربية ان الغزالي عالم ديني فحسب . والحقيقة ان الاسلام قد ادمج كل نظم التفكير في نظامه الديني العجيب ، وان الغزالي في دفاعه عن عقيدته وفي جداله مع الفلاسفة أقرب في اساليبه الى الفيلسوف المفكر منه الى المتدين المستسلم . وقد يظهر لاول وهلة ان في مثل هذا التعميم بشأن الاسلام مبالغة اية مبالغة ولكنه اليوم الرأي الذي اجمع عليه معظم العلماء المستشرقين . وللعالم الالماني رتر Ritter كلمة ذات شأن بهذا الصدد، فهو يقول ما معناه أن المدارس الفقهية والتفكير الديني في الاسلام يمثلان الفلسفة العربية اكثر مما يمثلها جمهور الفلاسفة اتباع ارسطو كالفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم . ويقول Boer اعمق من تضلع من دراسة الفلسفة الاسلامية بين الغربيين « ان في اتباع الغزالي تلك الطريقة المبتكرة من التصوف والاقتناع الباطني ، لفلسفة أعمق وادنى الى الحق من فلسفة المقلدين »

والغزالي احد تلك العقول النادرة جداً التي لا يحتاج ابتكارها بكثرة ما تخوض فيه من العلوم والمعارف . وهو (على ما دلني اختباري) احد تلك الشخصيات العميقة التي لا يمكن العثور لها على قرار . فقد تقرأ وتقرأ ثم لا تزال تجد انك قاصر على فهم

ناحية واحدة من نواحي هذه النفس الكبيرة . ولا نظن انّا موفقون في بسط هذه الفكرة للقراء الى أجمل وابلغ من المثال الذي ضربهُ الغزالي نفسه في مؤلفه (كيمياء السعادة) حين اراد ان يرمز الى عظمة الوجود وقدرة الله الازلية ، فيرى ان الفلكيين والاطباء والدهريين انهم مقتصرون في ابحاثهم على ادراك العلل الثانوية وانهُ لا يمكنهم بطريقة من الطرق تعدّيها الى ما يدعونه (السبب الاول او القوة الفعالة) قال : احضر احدهم فيلاً الى قرية كل ساكنيها من العميان، فتجمهر حول هذا الحيوان عدد كبير منهم يريدون معرفة هذا المخلوق العجيب . ثم وضع أحدهم يده على خرطومه فقال انهُ يشبه العمود ، ولمس آخر اذنيه فقال لا بل هو يماثل شراع السفن ، ولكن ثالثاً منهم صاح فقال لا بل هو كالخيمة الكبيرة وكان قد وضع يدهُ على جسمه فكل واحد من هؤلاء صادق فيما قاله لكنهم لو ادعوا ان الفيل كلهُ هو عبارة عما وصفوه لكانوا من الكاذبين

ونحن حين نحاول ان نكتب عن الغزالي ثلم بجميع أطواره النفسية واختباراته العقلية ، يتملكنا نفس هذا الشعور . وقد يكفيك تمثلنا بهذه الخرافة لترى اننا ونحن نباشر الكتابة شاعرون بعجزنا وتقصيرنا عن ان نقدم لك الغزالي شخصية حية كاملة لم تحجر بفعل الاقلام على الاوراق ! ! !

﴿ العصر الذي نشأ فيه ﴾ : كان القرن الحادي عشر الذي وجد فيه الغزالي من أظلم العصور في تاريخ الاسلام . فقد ضعفت الخلافة في ذلك العهد ، وكثر الدعاة ، فتكالب الزعماء على السلطة واورثوا الشرق على الاثر فوضى لا فوضى بعدها . وزاد في فوضى الحياة المادية اضطراب في الافكار وبلبلة بالمشارب والمعتقدات . لان المسلمين كانوا قد انقسموا بعد ان ضعفت شوكة الاسلام الى احزاب وشيع كل يدعو الى فريقه ومعتقده

وقد ادرك الغرب هذا التضعضع الذي كان قد اصاب الشرق آنئذٍ فرأى الفرصة سانحة لينقضّ عليه ويشتبك معهُ في سلسلة من الحروب — الحملات الصليبية — يقال انها دينية والحقيقة انها كانت فوق ذلك سياسية واجتماعية ترتكز الى ما كان سائداً في الشرق والغرب من الاحوال في تلك الآونة العصيبة

فمن شيعة يدعون الناس للايمان بامام مستتر ، الى معتزلة يرفضون سلطة السلف ويتكلون على سلطة العقل المجرد ، الى اسماعيلية ينقمون على كل نظام ثابت ويعملون

على تقويضه . وعلى رأس هذه العوامل الهدامة جمهور المتفلسفة يبثون في الناس التعاليم الفجة التي لم تتهيأ لها عقولهم ، فتنسخ يقينهم ثم هي لا تملأ هذا الفراغ بشيء يذكر ، وكل ما لها من الاثر ان تحمل العامة على الشك والاضطراب

ثم يجب الا ننسى بعد هذا كله ، ان الروح السائدة في تلك الفترة من الزمن ، هي روح القرون الوسطى وان الاحوال احوالها والشعور شعورها ، بكل ما يميز تلك الروح من ميل الى اليأس والتشاؤم ، وتلك الاحوال من الاضطراب والفوضى ، وذلك الشعور من ميل للحياة الاخرى والتفكير في وقوعها . وكل هذه عوامل ومؤثرات يجدر الا تغيب عن الذهن ابداً حين نبدأ بتحليل شخصية الغزالي وعرض تطور شخصيته وآرائه . وهي امور يجب اذا نحن اردنا الانصاف ان نأخذ لها العدة ، حين نحكم على الغزالي او نقابله بغيره من الفلاسفة اللاحقين ، لان النفس البشرية مهما سمت وتجردت فلا بد ان يعلق بها من محيطها وزمانها الشيء الكثير

اما ثقافة العصر العامة فقد كانت في مستوى علمي عال ، رغم ما وصفناه من الاضطراب في الحالتين السياسية والاجتماعية . وذلك لاسباب يطول البحث فيها فنقتصر منها على سببين . الاول تأييد الامراء واصحاب النفوذ للعلماء والمفكرين او على الاصح استخدام هؤلاء لاغراضهم الخاصة فيؤيدون سلطتهم ويعززون سياستهم . ومع ان العلماء كانوا وسيلة بل الغوبة ليس الا كما نرى ، فان العلم استفاد كثيراً من هذا التأييد ورعاية اولي الامر له في ظروف واحوال كان يضطر فيها المفكرون لولا تلك الرعاية ان يخضعوا للرأي العام وحكم الاكثرية فيهبط الفكر الى الدرك الاسفل . واما السبب الثاني فمنوي يصعب توضيحه وهو الميل الذي يعتري بعض النفوس الطامحة المفكرة لتسمو من حضيض الحياة المادية بما فيها من النزاع والاضطراب الى حالة نفسية هادئة تخيم عليها طمأنينة فلسفية عميقة . ففي نفس الوقت الذي كان فيه الصليبيون في الغرب يتأهبون لشن الغارة على المشرق ، كان الغزالي يعد نفسه لان يكون بطل الاسلام الروحي

هذا وصف موجز للمسرح الذي نشط الغزالي لتمثيل دوره عليه . وقد كان من عصره حقاً بمثابة البطل من الرواية فهو رمز لعصره ، ومعلم لتطور الفلسفة مدى قرون ، بل هو بنفسه فصل من فصول الفلسفة الاسلامية حتى ليمكننا من اجل كل ما اسلفنا ان ندعو العصر الذي عاش فيه بحق وبدون ادنى مبالغة ( عصر الغزالي ) .

في حياته وعقليته . فهو اذا تمكنا حتى بحثنا من ان نجده في عهد سابق من هذه الحقبة ، ان نقاط سيرته تنقسم الى قسمين منفصلين فبحثنا اولاً في حياته ، ثم تدرجنا الى البحث في عقليته على حدة . على ان ذلك مما لا سبيل اليه في البحث عن الغزالي وذلك لانه شيد عقيدته وآراءه على قاعدة الحياة ، بما اختبره فيها من التجارب ، ولم يفرق مطلقاً بين ما يعتقده وما يعمل به اي بين الحياة المادية التي كان يعيشها ، وما كان يدعه دعاة من المذاهب الروحية والعقلية

واقوى ما نستند عليه في كتابة هذا الفصل مؤلف صغير بل رسالة تركها الغزالي بمثابة ( اعترافات ) فكانت لنا عوناً على حل عقده النفسية الخافية . والرسالة هذه بعنوان ( المنقذ من الضلال ) شرح فيها كل ما انتابه من الشكوك الروحية والتجارب العقلية . وهي فريدة في الآداب العربية ليس فقط بجمال اسلوبها ، بل بالمراقبة التحليلية فيها والاخلاص المترقرق بين سطورها . وهذه الامور الثلاثة هي في نظرنا اهم ما تمتاز به كتابات الغزالي بوجه الاجمال . فالمنقذ كاد يكون اول بذرة صالحة في علم تحليل النفس او ما يسمونه Psycho-annlysis

ولد الغزالي على الارجح في قرية غزالة بجوار طوس من خراسان عام ٤٥٠ ه وتوفي والده وهو لا يزال صغيراً بعد ما اوصى به وباخيه صديقاً له صوفياً وحثه على تعليمهما . فدرس اولاً مبادئ القراءة والكتابة في قريته ، ثم انتقل الى طوس يدرس الفقه والحديث على الرذكاني ، ورحل بعد ذلك الى جرجان حيث تتلمذ لابي نصر الاسماعيلي . غير ان عهد تفقهه الحقيقي يبتدئ في المدرسة النظامية بنيسابور تحت اشراف امام الحرمين الجويني . وقد اظهر هنا ذكاء واجتهاداً فائقين حتى ان الامام كان يتكل عليه في التدريس بدلاً منه

ولكن الغزالي كان قد اظهر التردد منذ اوائل حياته ، ومع انه كان في وسط صوفي محض فقد شك في معتقده ، الا انه بقي كاتماً سر نفسه الى ان توفي استاذه الاكبر سنة ٤٧٨ فبرح طوس الى بغداد وكانت شهرته قد سبقته اليها وكان فيها يومئذ نظام الملك وزير الب ارسلان السلجوقي ، وقد اشتهر برعاية العلماء والميل لمعاشرتهم فاختبره مدة ولم يلبث ان وثق بمقدرته وسعة علمه فجعله اولاً من قضاته ثم ولاه رئاسة الجامعة النظامية في بغداد . ودرس الغزالي هناك مدة ذاعت فيها شهرته اضعاف ما كانت عليه من قبل

ولكن يظهر ان ابحاثه الفلسفية في المدرسة النظامية ، واحتكاكه باصحاب المذاهب الفكرية المختلفة الذين كانوا يجتمعون ببغداد ، ثم ميله الفطري الى البحث والمجادلة والتنقيب ، كل هذه العوامل اهابت به الى الشك المطلق ليس فقط في امر التقليد الديني بل اصبح يتردد في صحة العلم عينه . وعلى ذلك فقد أخذ بعد مقتل نظام الملك سنة ٤٨٥ يدرس كل الآراء الفلسفية الشائعة عنها ترد اليه إعانة . وقضى في ذلك ثلاث سنين لم يظفر منها بطائل

يقول الغزالي ان دواعي شكه كانت كثيرة ، فهو انه كان يلاحظ ان الطفل ينشأ اما مسلماً او مسيحياً او يهودياً ليس لانه اختار ما اراده لنفسه من هذه الاديان بل لان ابويه يجعلانه كذلك ، وفي ذلك حديث للنبي مشهور . فبعث ذلك الشك في عقيدته وصار لا يقيم وزناً لغير اليقين الثابت في مثل قولك العشرة أكثر من الثلاثة . ولكن هنا يصدمه الشك ثانية فاليقين مبني على الحس والحس لا يصدق دائماً ، فانك مثلاً ترى الظل ثابتاً بينما هو في الحقيقة متحرك . وعلى ذلك تبطل ثقته بالمرئيات فيركن الى العقليات . ولكن كيف يأمن مغبتها وقد وثق اولاً بالمرئيات فخانته ؟! ألا يمكن ان تكون فوق العقل حالة هي بالنسبة اليه بمثابة اليقظة من النوم ؟! اننا نرى الاشياء في منامنا كأنها واقعية فاذا جاءت اليقظة لم نصدق بها لان العقل ينكرها . فهلا يمكن ان تكون الاشياء التي نعتقد بانها معقولة في حياتنا هذه ، هي بدورها ايضاً باطلة بالنسبة للحياة الاخرى ؟!

هذا ما انتهى اليه الغزالي في تفكيره الدائري فقد بدأت شكوكه في نقطة معينة من الدائرة وما زال في كفاحه وجهاده الداخلي حتى انتهى الى تلك النقطة عينها . ولكنه مع ذلك اطمأن الى اساس عقلي ثابت يركن اليه العقل

كان الغزالي حينئذ قد جاوز من عمره الخامسة والاربعين ورأى ان لا فائدة تجنى من وراء الشك والتنقيب فمالت نفسه المتعبة الى الطمأنينة التي كان قد فقدها منذ سنين وهاك ما يقوله هو عن نفسه وفي ذلك خير مثال لاسلوبه الرائع وكان قد حصل له من « العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر . فهذه الفصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين مجرد بل باسباب وقرائن وتجاريب

لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أن لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ......... ثم لاحظت احوالي فاذا انا منغمس في العلائق .... ولاحظت اعمالي واحسنها التدريس والتعليم فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت اني على شفا جرف هار » (١)

ولذلك برح الغزالي بغداد تحت ستار الحج سنة ٤٨٨ واستخلف مكانه للتدريس اخاه احمد ، وكانت الغاية الحقيقية كما رأيت من كلامه العزلة والتنسك ، وطلب الآخرة . وبقي يتنقل شأن النساك الزاهدين احدى عشرة سنة ابتلي في اثنائها كل ما في التصوف من مبادىء وتعاليم ومكاشفات ، واصبح لفرط الاخلاص يصف اخوانه المتصوفة فيقول : هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقهم اصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا » . وقد قضى معظم هذه المدة في سورية وفلسطين فاعتزل في مأذنة الجامع الاموي بالشام واقام في جامع الصخرة بالقدس زمناً كتب فيه (الرسالة القدسية ) وما برحها الا قبيل دخول الصليبيين اليها عام ٤٩٢ . وقد زار مقام ابراهيم الخليل بحبرون وتوجه اخيراً الى مكة في طلب الحج . ولكن ما أزف القرن الخامس بالانصرام حتى عاد الاضطراب الى نفس الغزالي الثائرة وحن الى الاهل والاوطان ، وشعر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه في اصلاح ما اختل من الدين واخيراً اضطره السلطان ملك شاه ان يعود الى التدريس في نيسابور بعد ان كان قد خيب رجاء اكثر أصدقائه في هذا الشأن ، وكان رجوعه عام ٤٩٩ . وهاك ما يقوله هو بنفسه « فلما رأيت اصناف الخلق قد ضعفت ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي مليئة بكشف هذه الشبهة حتى كان افضاح هؤلاء أيسر عندي من جرعة ماء لكثرة خوضي في علومهم اعني الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمترسمين من العلماء . انقدح في نفسي ان ذلك متعين في هذا الوقت محتوم فماذا تغنيك الخلوة

(١) راجع المنقذ من الضلال لابي حامد الغزالي طبعة مصر ص ٤٢ و ٦١

والعزلة وقد عم الداء ومرض الاطباء . . . . . ويسّر الله تعالى الحركة الى نيسابور للقيام بهذا المهم سنة ٤٩٩ »

وقضى في نيسابور مدرساً ثلاث سنوات اضطر في نهايتها على ما يقال من اجل بعض الخلافات التي نشأت بينهُ وبين بعض العلماء ان يلتجيء الى طوس البلدة التي قضى فيها ايام صباه. وهناك اعتزل عن العالم واعتكف على درس الحديث . وقداسس خانقاه لرفاقهِ من الصوفيين واصبح يعلم عدداً من التلاميذ الذين كانوا يتوافدون اليه من الاقطار المجاورة على عادتهم في طلب العلم . ويقول عبد الغافر احد المترجمين لهُ ومن اقدمهم تاريخاً ان سيرتهُ تغيرت بالكلية في تلك الفترة إذ اصبح متواضعاً وضيعاً بعد ان كان ميالاً الى الجدل والمناظرة مع الاتراب متكبراً عليهم

ولابن تيمية (ولد سنة ٦٦١) قول بشأن الغزالي لا يخلو من غرابة اذ يقول « ولهاذا تبيّن لهُ في آخر عمره ان طريق الصوفية لا تحصل مقصودهُ فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، واخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ومات في اثناء ذلك على احسن احواله وكان كارهاً ما وقع في كتبهِ من نحو هذه الامور مما انكرهُ الناس عليه» الا اننا نردّ هذا القول ولو قبلهُ الدكتور زكي مبارك ليس لانهُ معاكس لكل ما اطلعنا عليهِ بشأن الغزالي واخلاصهِ للصوفية حتى موتهُ فحسب بل لانهُ لا يعقل ان يكون الغزالي قد اقلع عن الصوفية في وقت كان فيهِ يبث مبادئها بين حلقات تلاميذه ويشيءُ لاتباعها خانقاه يجتمعون بها كما رأيت . وما زال الغزالي في مثل هذا الصلاح والتقوى والاعتزال الى أن توفاهُ الله عام ٥٠٥ هـ

لكن الخلف من المسلمين الذين احلوا هذه الشخصية مكانة تقرب من التقديس لم يكتفوا بهذا القدر من الاخبار التاريخية الصادقة ، ولذلك نرى الكثيرين من الكتاب قد اذكوا الخيال فاضافوا اليها من العجائب والكرامات اشكالاً وانواعاً . ومن حسن الحظ اننا نستطيع اليوم نقدها وتمحيصها لان الاغلاط التاريخية فيها جلية ، وتناقض الوقائع ظاهر بيّن

وعلى كل فما هذا سوى موجز لحياة الغزالي الحافلة نقتصر عليهِ لننتقل منهُ الى البحث عن آراء المستشرقين فيهِ في الجزء القادم ، ونرى هل كان لهُ ضلع في الفلسفة بمعناها المشهور

القدس شكري مهدي

ب . ع